

سليم البيك*

منفى فلسطيني سورية المتعدد**

تلتبس عند اللاجئ الفلسطيني عامة، واللاجئ الفلسطيني من سورية خاصة، مسألة المكان/الهوية، بين الإقامة في المخيم الذي هو ليس مكان إقامة أصلاً أيضاً ويفتقد فيه كثيراً من حقوقه كإنسان، وبين ما يمكن تسميته "منفى المنفى"، في أوروبا مثلاً، الذي يعطيه شعوراً بالمنفى كاملاً، على الرغم من كل ما يمتلكه من حقوق، ولاحقاً جنسية للوطن الجديد الذي لا يعطيه شعوراً بأنه وطن.

يكمل المتنقل/اللاجئ/المنفى الفلسطيني رحلته عائداً إلى المكان الذي تخلى هو الآخر عن معناه ليصير، وهو القرية أو المدينة في فلسطين، لدى أهله الأصليين اللاجئين في المخيمات، رمزاً وطنياً ورومانسياً، متخلياً عن واقعته وماديته وما تتضمن هذه الواقعية والمادية من روتين يمتد من تردد على مقهى هنا، وموقف باص هناك، وبيوت جيران هناك.

ليست هذه هي حال الفلسطيني، ابن المخيمات، مع أمكنته في فلسطين، بل هي حاله في مخيماته التي، بهذه الحالة، لم تعد منفى، ففيها يتردد على مقاهٍ ويتلقى فواتير. هنا قد نفهم أن يقول أحداً إن فلسطين عندي هي المخيم، لأن الأولى ليست سوى رمز وطني ورومانسي، والثاني مكان حقيقي لنا فيه (أو

لا يكتمل الحديث عن المنفى من دون الحديث عن معنى الإقامة لدى المنفى، فهو يدرك أن مكاناً ما يكون منفى له من خلال إدراكه المسبق لمكان آخر يكون له (أو كان له) مكان إقامة واستقرار وطمأنينة، من دون أن أضطر هنا إلى تسمية هذا المكان بالوطن. الفلسطيني في المخيمات خارج فلسطين، وفي الشتات، يلتبس عنده المنفى بالإقامة، إذ لا حدود (مادية أو معنوية) واضحة بين هذه وتلك، فلا تكون الإقامة في مخيم في سورية مثلاً، منفى، لكنها ليست إقامة بالمعنى الذي يفهمه المقيم غير اللاجئ أو غير المنفى، كالفلسطيني في فلسطين، أو السوري في سورية.

ليس المكوث لسبعين عاماً في مخيمات شُيّدت حول فلسطين، إقامة، وإن صارت السبعين مئة. وليس ابن المخيم، في مخيمه، منفيّاً. هذه الحال التائهة بين الإقامة والمنفى هي أقرب إلى أن تكون مروراً، ترانزيت طال قليلاً، أو كثيراً، فتخلي المخيم عن معناه كمكان موقت ريثما

* كاتب فلسطيني مقيم في فرنسا.

** المقالة مستندة إلى مداخلة للكاتب في منتدى "كتابة في المنفى"، في ١٠ تموز/يوليو، في برلين.

كان لنا فيه) ذكريات وأصدقاء ومخابز ودكاكين وفواتير كهرباء مكدسة.

المنفى لدى فلسطيني سورية هو منفى سوري، وهو استمرار لمنفى فلسطيني. وقد ورث هؤلاء اللجوء عن أجدادهم، وتعايشوا معه وألفوه، وصار المخيم وطناً، صار فلسطينهم، قبل أن تحل عليهم نكبة أخرى دفعتهم إلى أن يصنعوا لجوءهم الخاص. كانوا جزءاً أصيلاً من اللجوء الفلسطيني، وهم الآن جزء أصيل من اللجوء السوري.

لذلك اكتسب المخيم معنى فلسطين ومكانتها فيهم، وبقيت هي رمزاً غير مكاني ولا مادي، خيالات ممتدة من حكايات الجد إلى الكتب والتلفزيونات والإنترنت. يصرّ كثيرون من الفلسطينيين أهالي هذه المخيمات، اليوم، على العودة من أوروبا إلى المخيم، ويصرّون كذلك على أن الإقامة فيه، وإن نالت جميع الشروط لتكون دائمة، هي إقامة مؤقتة، فالتبس المخيم بفلسطين، والمنفى بالإقامة، والموقت بالدائم. هذا الالتباس جعلني ألجأ إلى كلمة "مرور" في الحديث عن المخيم وفلسطين وعلاقة أهلها بهما. وهو ما عنونتُ به الفصول في رواية "تذكرتان إلى صفورية"، فكانت: "ماراً بتولوز"، و"ماراً من اليرموك"، و"ماراً مع ليا"، وأخيراً "ماراً إلى صفورية". لتكون حياة الشخصية الرئيسية في الأمكنة التي أقامت فيها، مروراً، وتكون الإقامات محطات انتظار ريثما يكمل رحلته، أخيراً، إلى المكان الذي خرج جدّه منه قبل سبعين عاماً، من دون أن يكون متأكداً أنه المكان الذي سيزول فيه، أخيراً، الالتباس بين المنفى والإقامة، وبين المخيم وفلسطين، وبين الاغتراب والانتماء.

اليوم، يصنع فلسطينيو سورية مفاهيم الخاص، لجوءهم الجديد، إلى أمكنة مرور أخرى، مبتعدين، أكثر، عن مكانهم الأصلي، ومتخلين عن فكرة أننا في المخيمات نكون أقرب إلى فلسطين، لنعود سريعاً يوماً ما، كما خرجنا سريعاً، لنجد أنفسنا فجأة فيها، كما وجد

أجدادنا أنفسهم فجأة لاجئين خارجها. اليوم، تخلى فلسطينيو سورية عن ذلك، وتبعثروا، كالسوريين، في أمكنتهم الجديدة وبلا مخيمات تشكّل وطناً مؤقتاً، وتحفظ هوية تائهة، وتجعل المنفى ملتبساً في إقامات جماعية.

الآن نحن في منفى، وليس يوم كنا في المخيم. ليس الألمان سوريين، وليس الجليل على الحدود. المنفى هنا اغتراب عن المكان وأهل المكان، هنا فقط فهمت ما قاله غسان كنفاني في قصة "أرض البرتقال الحزين": "وعندما وصلنا صيدا، في العصر، صرنا لاجئين."

ينهي كنفاني قصته بالحديث عن برتقالة حملها والد الراوي معه من فلسطين إلى لبنان بأنها كانت "جافة يابسة [...]". البرتقال ترميز للأرض، فهو "يذبل إذا ما تغيرت اليد التي تتعهده بالماء [...]"، لكن ما الذي نعرفه نحن، فلسطيني سورية في المخيمات وأوروبا اليوم، عن هذا البرتقال؟ طرياً كان أم يابساً؟ حامضاً أم حلواً؟ ما الذي نعرفه ويدنا لم تتعهده بالماء؟ ما الذي نعرفه عن البساتين هناك، أو - من دون رمزية كنفاني - ما الذي نعرفه عن تلك الأرض وذلك الوطن؟ أحكي عن معرفة أهل الأرض للأرض، وأهل المكان للمكان. أحكي عن معرفة ابن أي أرض لأرضه، لم يتشكل احتلال عليها هجره منها، وجعله أجياً من اللاجئين.

لم يكتفِ الاحتلال الإسرائيلي بتسببه بهذا الاغتراب اليوم بين ابن المخيم وبرتقال فلسطين (أو أي شيء من فلسطين، فكمشة التراب من هناك نحتفل بها بكل سذاجة إن وصلتنا)، وإنما جعل من برتقالنا، في يافا، ماركة تجارية تملأ أسواق أوروبا. وقفت يوماً حائراً أمام هذا البرتقال، أنظر إلى واحدة من حبّاته، طرية، وحلوة بالضرورة، وقفت كأني أسألها رأيها فيما عليّ فعله.

هنا، في أوروبا، حيث سينال أحداً مواطنة ربما، وحقوقاً مدنية كاملة لم نلها في سورية، تماماً كما لم يُلها السوريون أنفسهم، هنا

التي لا يعرفها ابن المخيم إلا من بعيد، والتي إن وجد نفسه، فجأة، فيها، سيضيع، لأنه ليس من أهلها، سيضيع كغريب يحنّ إلى المخيم الذي حفظ زواريبه وأبواب بيوته بنقوشها المتقشفة ودهانها المقش.

لا إجابة لديّ عن المكان لدى ابن المخيم، عن معنى الإقامة، عن معنى المنفى واللجوء. أعرف أن المخيمات كانت ممرات أطلنا المكوث فيها فبنينا بيوتنا هناك، من الباطون، وعمّرنا فوق البيوت طبقات. أعرف أن المخيم لا يبدو كمر، لا يبدو كترانزيت ننتظر فيه محتضنين حقائبنا، منتظرين إعلاناً بشأن موعد رحلتنا كي نعود. بنينا في المخيمات حياة فلسطينية، هي الحياة الفلسطينية التي يعرفها نصف الشعب الفلسطيني. قد لا يبدو المخيم لأهله، لثلاثة أجيال من أهله، إلا المكان الذي ننتمي إليه. وأمكنتنا في فلسطين، تلك القرية في الجليل في حالتنا، ترشيحا، ليست إلا معنى ورثناه، لا تضمن لنا ألا نضيع فيها، وألا يعتبرنا أهلها الفلسطينيون الساكنون فيها، مهما يكونوا لطفاء، غرباء "خارج أمكنتهم" في فلسطين، كما كانوا "خارج أمكنتهم" في أوروبا.

بدأت هذه الأسطر بالقول إن الحديث عن المنفى لا يكتمل من دون الحديث عن الإقامة، وإن هنالك التباساً لدى فلسطيني سورية بين الإقامة والمنفى، لأنّني قائل أني، كواحد من هؤلاء، لا أعرف إن كان المخيم أم فلسطين، هو الإقامة وما دونه منفى، وأعترف بأنه سؤال معلق وقلق ولا إجابة لديّ عنه، لكنني أعرف أن ابن المخيم، اليوم، في ألمانيا وفرنسا وهولندا وغيرها، إن اختار العودة إلى مكان ينفي فيه منفاه الأوروبي، سيختار المخيم. ■

سيكون المكان مروراً آخر، وقد يكون أخيراً. سيكون للمنفي شروطه الكاملة والبيّنة، سيكون منفى مطمئناً، وستكون فلسطين بعيدة بقدر ما هي قريبة: بعيدة بعد المخيم عن أوروبا، بعيدة بعد حياة المخيم الجماعية عن حياة اللاجئ الفردي في أوروبا، بعيدة في اليوميّات والجيران واللهجة غير المسموعة في الحارات، وقريبة كوجهة زيارة يقوم بها ابن المخيم بجواز سفر جديد يعطي لمنفاه وثيقة تثبته.

ابن المخيم هذا، بعد أعوام في أوروبا، ماراً بها، وقد وصلها عصراً أو فجرًا، ووجد نفسه، فجأة، لاجئاً محتملاً، منتظراً مقابلة ثم بريداً من الدولة يخبره بقبولها له لاجئاً، مع إقامة لعشرة أعوام (في فرنسا مثلاً) سيفرح بها كما لم يُفرحها شيء في أعوامه الأخيرة، ابن المخيم هذا سينال المواطنة، وجواز سفر لا إشارة فيه إلى فلسطين، لا مكان ولادة ولا أي إشارة إلى فلسطين في أي أوراق ثبوتية له. ابن المخيم الفلسطيني سيجد نفسه بعد أعوام قليلة، أمام احتمال جدّي بإمكان زيارة فلسطين (وبساتين البرتقال فيها، ثمرة ومزهرة ووارفة): زيارتها، إنما ليس كفلسطيني، وأقول "زيارة" وليس "عودة"، يزورها إنما كأجنبي وكفرد منعزل عن المجموع الفلسطيني، فمنفاه الأوروبي جعله إمّا فلسطينياً خارج مكانه، وإمّا، لاحقاً، في مكانه غير فلسطيني.

افترضت هنا أن المكان، مكانه، هو فلسطين، أو المدينة والقرية هناك، لكن سؤال المكان، بآل التعريف، مازال قلقاً لديّ، فحتى اليوم لا أستطيع الحسم لنفسي إن كان المكان هو المخيم حيث التبس المنفى بالإقامة، وحيث فلسطين الصغيرة، أو كان المكان تلك القرية في فلسطين